المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الأستاذ: حمزة بوزيدي

مصادر التصوف

أ- **المصدر اليهودي والنصراني:** تعدد الديانة اليهودية والنصرانية من بين المصادر التي أثرت في التصوف الإسلامي، يقول الشهرستاني عن تأثر المسلمين باليهود إنهم: "وجدوا التوراة ملئت بالمتشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهرا والنزول من طور سيناء انتقالا والاستواء على العرش استقرارا وجواز الرؤية فوقا"[1]؛ وقد كان اليهود على دراية بهذه المسائل قبل المسلمين نظرا لأنهم أهل كتاب مقدس، أنزل فيه أشياء وقصص وشرائع وأخبار عن الدنيا والآخرة، فكان من الطبيعي أن ينشأ لديهم علم بالتصوف. وفي تأثر أعلام الصوفية المسلمون بالتصوف اليهودي، يقول الدكتور بشير جلطي: "كما أن قصة موسى وخلع النعلين، والنار والمقدسة والشجرة المقدسة وتكليم الله ومقام لن تراني، وقصة موسى مع الخضر وأسرار نظرية العلم اللدني، كل هذا كان له امتداد وأثر على ثقافة التصوف التي قاد لواءها كل من الحلاج وابن عربي والبسطامي"[2].

وقد اتصل الصوفية المسلمون بالمسيحية، ونهلوا منها العديد من المفاهيم والأحوال، وهذا ما يؤكده الدكتور فاروق عبد المعطي في حديثه عن الروحانية التي تنهل من النبع المسيحي، بقوله: "إن الإسلام باتصاله بالديانات الأخرى وخصوصا المسيحية كامن من الصلابة وازداد مرونة في اتجاه الروحانية فقام الصوفية ونسبوا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم آراء موغلة في الروحانية العالية مستمدة من الرهبانية المسيحية وعبادات

---

[1]- محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تصحيح، أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ج1، ص 232-233.

[2]- بشير جلطي: حقيقة التصوف بين التأصيل والتأثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص66.

ومجاهدات في التعبد والفضيلة غريبة عن الإسلام الأصلي"[3]؛ ومن هنا دخل في لزهد العربي والتصوف عناصر فكرية وروحانية ليست منه، وأصبحت بالنسبة إلى البعض من الصوفية معالم، وعلامات على قرب الصوفي من ربه، وقالوا مقولات ليست من الإسلام: "ففي المسيحية أن المسيح إله وإنسان في وقت واحد، وفيه يتحقق الاتحاد الأقنومي (الشخص) وهو نموذج العلاقة الوثيقة بين الإنسان والألوهية"[4]؛ ويقدم الدكتور فاروق عبد المعطي نموذجا من الصوفية الذين تجسدت لديهم هذه العلاقة المزعومة، وهو الحلاج الذي: "خطا هذه الخطوة الجديدة في التقريب بين الإسلام والمسيحية فعبارته "أنا الحق" تتحقق تماما في المسيح وتتحقق صوفيا لدى أولئك الذين يقتدون به في حياته القائمة على المحبة والفداء، وكما في شخص المسيح يتحد اللاهوت بالناسوت دون أن يختلطا فكذلك عند الحلاج الاتحاد أو الحلول"[5]؛ فالمعنى واحد في كليهما ولكن الاختلاف في الألفاظ والمصطلحات التي توظفها المسيحية والتي يوظفها الإسلام أو التصوف الإسلامي.

ب- المصدر الهندي: اتصل المسلمون بالبلاد الهندية في العصر العباسي اتصالا كبيرا نتج عنه تبادل فكري وعقائدي، ويؤكد هذا التأثر المستشرق اجناس جولد تسيهر بقوله: "عند إلقاء نظرة عامة على تاريخ التصوف لا يمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات بصفتها عوامل ذات أثر نافذ، وأقصد بها المؤثرات الهندية التي بدت بصورة محسوسة منذ العصر الذي انتشر فيه الإسلام شرقا حتى حدود الصين، فتخطت أفقه تدريجيا تلك الآراء الهندية التي ظهر بعضها في الآثار الأدبية والبعض الآخر في الفكر الديني الإسلامي"[6]؛ ومن المعروف عن أمة الهند أن لديهم عبادات قديمة مرتبطة بالبوذية، تقوم على أسس فكرية وروحية في تصورها لعقيدتها.

ويذكر الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي بعض الصوفية المسلمين ممن وجد فيهم ملامح التصوف الهندي، من أمثال "الحارث المحاسبي وذي النون المصري، وأبي يزيد

---

[3]- فاروق عبد المعطي: محي الدين ابن عربي حياته، مذهبه، وهده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص164.

[4]- المرجع نفسه، ص164.

[5]- المرجع نفسه، ص 164.

[6]- إجناس جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة د. محمد يوسف موسى وآخرون، ط2، دار الكتب الحديثة بمصر، القاهرة، مصر، ص158.

البسطامي، والجنيد"[7]. ويتفق الصوفية المسلمون مع التصوف الهندي في "طرائق الزهد، والعبادة والتفكر، والذكر، والمعرفة، والفناء، ووحدة الوجود"[8]؛ ويذهب المستشرقون إلى أن فكرة وحدة الوجود هندية الأصل، ويرون أنها ترجع إليه فكرة المحاسبة والمراقبة التي حلت في التصوف محل الزهد في العصر القديم"[9]؛ وبهذا فإن التصوف الهندي قد كان رافدا من الروافد الاعتقادية التي أثرت في فكر الصوفية المسلمون في العصر العباسي.

ج- المصدر اليوناني: يذهب المستشرقون إلى تبني نظرية المصدر اليوناني للتصوف العربي الإسلامي، ومن القائلين بهذه النظرية ماكس مركس (Max Merx) وديلاس أوليري (Dilas Oliri). وقد "حاول أوليري أن يثبت أخذ الصوفية من المصدر اليوناني منذ القرن الثالث الهجري وما بعده، وللبرهنة على ذلك رأى أن الأثر المباشر الذي تسرب إلى الإسلام عن نقل الفلسفة اليونانية كان قد سبقه أثر يوناني غير مباشر عند اللغتين السريانية والفارسية"[10]. وهذا الأثر للفكر اليوناني مع الفكر العربي في العصر العباسي كان بفعل ترجمة المؤلفات اليونانية؛ مثل مؤلفات أفلاطون، وأرسطو وغيرها من المصادر التي تكلم فيها أصحابها عن قضايا متعلقة بالعقائد والوجود والدين.

وقد قارن (وين فايلد) بمقارنة بين "ما جاء في الأفلاطونية من أوصاف للواحد وما ذكره الصوفية من صفات الله تعالى كما قارن الإلهام الصوفي والإشراف الباطني عند الأفلاطونية المحدثة ورأي ما بينهما من تشابه أو تماثل وأسس على ذلك أن الصوفية قد استمدوا ذلك من تلك الأفلاطونية الجديدة"[11]، وقد توصل البحث الاستشراقي في هذا إلى أن هذه العلاقة ترجع إلى سنة 200هـ. ومن أمثلة الصوفية الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية الصوفي معروف الكرخي، والسري السقطي، وذو النون المصري[12].

---

[7]- محمد عبد الله الشرقاوي: المستشرقون ونشأة التصوف الإسلامي، دار البشير للثقافة والعلوم، عمان، الأردن، ص 27-28.

[8]- المرجع نفسه، ص 28.

[9]- المرجع نفسه، ص28.

[10]- محمد عبد الله الشرقاوي: المستشرقون ونشأة التصوف الإسلامي، ص 49.

[11]- المرجع نفسه، ص 50.

[12]- ينظر، المرجع نفسه، ص51.

وبهذا فإن التصوف الإسلامي قد نهل من المصدر اليوناني الذي كان يقوم على عقائد نشرتها الأديرة المسيحية، والمدارس الأخرى كمدرسة الصابئة في بغداد، ولا يمكن أن نتصور حجم الثقافة اليونانية في الفكر العربي على مدار القرون العباسية.

د- المصدر الإسلامي: يعد الدين الإسلامي مصدرا من المصادر الأساسية للتصوف الإسلامي، وإذا أردنا الحديث عن معنى المصدر الإسلامي، فإننا نعني به القرآن الكريم الحديث النبوي الشريف. لكن الخوض في هذه القضية له محظوراته في الفقه الإسلامي، ولذلك يعترف الشيخ كامل محمد محمد عويضة بهذه الصعوبة فيقول: "إننا قبل أن نخوض في بيان أثر هذه المصادر في نشأة التصوف الإسلامي نشير إلى صعوبة بالغة لفتت أنظار الكثير من الباحثين ألا وهي أن الإسلام نفسه قد أتى بالنصوص الواضحة التي توضح بما لا يدع مجالا للشك بالتوحيد الإلاهي في صورة منزهة محددة"[13]؛ وكانت النصوص القرآنية توضح معالم العقيدة الإسلامية للمسلمين سواء أكانوا زهادا أم صوفية.

ويتساءل الشيخ كامل عويضة عن كيفية انتشار فكر الصوفية في الإسلام، في قوله: "كيف احتملت الديانة الإسلامية الآراء الصوفية التي يختلف معظمها في فهمه لله، كيف انتشر التصوف داخل البيئة الإسلامية مع وضوح النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في هذا الصدد"[14]؛ وهذا التساؤل مشروع بالنظر إلى كل قضية من قضايا التصوف، وإلى حكم النصوص الشرعية في القرآن والسنة النبوية الشريفة.

فإذا أخذنا قضية الاتحاد والحلول التي تعد عمدة المقامات الصوفية لم تكن موجودة في القرآن بل تم إدخالها عبر التاريخ، يقول كامل محمد عويضة في هذه القضية: "إن النص القرآني والسنة النبوية أوضحا أن الله منزّه عن كل المخلوقات ومن ثم فإن النظريات الصوفية التي ظهرت في الإسلام لا تستند إلى الدين الإسلامي، وعلى ذلك فإن أي محاولة تسعى إلى التوفيق بين آراء الصوفية والعقيدة القائلة بإله واحد منزّه عمّا عداه لا بد أن يكون مصيرها الفشل ومن ثم يكون التصوف الإسلامي وليد عوامل أجنبية ولا ذنب للدين الإسلامي فيه"[15].

---

[13]- كامل محمد عويضة: ابن باجة الأندلسي الفيلسوف الخلاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص79.

[14]- كامل محمد عويضة: ابن باجة الأندلسي الفيلسوف الخلاق ، ص79.

[15]- المرجع نفسه، ص 79.